منهج الدعوة في السيرة النبوية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الهادي إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، والصلاة والسلام على أفضل الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعلى آله وأصحابه الذين استجابوا لله وللرسول لما يحييهم ، وبعد :

إن الدعوة إلى الإسلام عقيدةً بتوحيد الله تعالى ، وعبادةً بإخلاص التوجه إلى الله ، ومعاملةً بالتزام نظام الشريعة في الحلال والحرام ، ودستوراً وحكماً صالحاً يقوم على العدل والحرية والمساواة ، من أصول الإسلام لكل من يعلم شيئاً من ذلك .

وقد نجح النَّبي ﷺ نجاحاً منقطع النظير ، يعد معجزة في تحويل العرب من عبادة الوثنية ، والتخلص من فوضى الجاهلية ، والتخلص من القبلية الضيقة والعنصرية البغيضة ، إلى عبادة الله الواحد الأحد ، وإلى حب النظام والعلم والأخوة وإشاعة المودة ، والانصهار في بوتقة المساواة ، من غير تفاضل بسبب العرق أو الجنس أو اللون أو الأصل أو العنصر أو نحو ذلك ، وهذا ما نجده في البحث الآتي بعناصره المتميزة .

* * *

الأسباب والغايات للدعوة الإسلامية

يعشق الناس في عاداتهم وأنماط حياتهم كل جديد ، ويردد المتحدثون في المناسبات أن لكل مقام مقالاً ، ولكل عصر أسلوباً في الدعوة وتوجيه المجتمع نحو مبدأ معين وهدف محدد ، ولكن جديد المقال والأسلوب ، بل وكل جديد غير مقطوع الصلة بالقديم ، وبخاصة ما له صلة بأصل إلهي ، لأن هناك أصولاً مشتركة تلتقي فيها العقول ، وتؤيدها العادات الثابتة والأعراف الحسنة ، فالنزعة المرغوبة إلى الجديد لا تعني تجاوز المسلَّمات العقلية ، والقضايا البدهية ، والأصول أو المبادئ الإلهية ، ويظل التجديد المطلوب محصوراً في الوسائل غير المقبولة عقلاً أو عادة ، أو فيما أثبت العلم عدم صلاحيته ، مثل اختيار نوعية الكلام أو الأفكار أو أساليب الحياة وطرق المعيشة ونظام التعامل ، أو بعض طرق التربية والتعليم أو الأمثال والقصص .

والإسلام يتجاوب مع هذا التطور في حدوده المعقولة ، ووفقاً لما تتطلبه غاية الدعوة إليه ، وتحقيق رسالته السامية ، الربانية المصدر ، والمحروسة بالوحي ، والإنسانية النزعة ، فكانت دعوة النَّبي ﷺ إلى الإسلام في بادئ أمره بعد البعثة سرية استمرت ثلاث سنوات ، ثم أصبحت جهرية تنقَّلت في مراحل السر ، والجهر بحسب حال المسلمين قوة وضعفاً ، فكان الجهر أولاً باللسان والنقاش الهادئ الهادف دون قتال مدة عشر سنوات إلى الهجرة .

ثم أذن الله تعالى للمؤمنين بقتال المعتدين بعد حوالي سنتين من

الهجرة ، إلى فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة بعد الهجرة ، ثم كانت بعدئذ مرحلة تطهير الجزيرة العربية من كل ألوان الشرك والوثنية ، توطيداً لموطن الدعوة الإسلامية ، وتأهيلاً للعرب ليكونوا مادة الإسلام وروحه وجند رسالته ، فدخل الناس في دين الله أفواجاً من الرجال والنساء في مكة والمدينة وغيرهما من بلدان الجزيرة .

وبذلك تحقق النداء الأول في سوق « ذي المجاز » لرسول الله ﷺ الذي كان يتبع الناس في منازلهم يدعو إلى الله ، شعاره قوله : « يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » « يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي ، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به » . « يا بني عبد المطلب ، إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة » ، « أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب ، وتؤدي لهم العجم الجزية » .

ولا حاجة لنا اليوم في تقديري لسرية الدعوة إلى الإسلام ؛ لأن الإسلام قد عزَّ ولله الحمد ، وأصبح واضح المعالم والفكرة ، سامي الغاية والهدف ، واقترن في أذهان أهل عصرنا أن السرية هي منهج الحركات الهدامة الشاذة ، والتحركات المشبوهة المريبة ، وتأكد هذا الفهم عبر تاريخ الإسلام أن الحركات الباطنية والفرق الضالة تلتزم السرية والعمل في الظلام ، أما سرية الدعوة الإسلامية في بادئ أمرها ، فكانت ضرورة تقتضيها الحكمة الإلهية لإيجاد الأنصار والأعوان الذين يقفون في وجه المعتدين الآثمين ، ولتتمكن الدعوة من الظهور على نحو قوي خلال بداية نشأتها ، وفي أثناء مراحل نموها وتقويتها .

منهج الدعوة إلى الله تعالى

لكن منهج الدعوة الإسلامية الذي يظل جديداً في كل زمان ونستفيده من سيرة نبي الله هو الدعوة أولاً إلى تصحيح العقيدة ، عقيدة التوحيد الخالص ، ونبذ كل مظاهر وألوان الشرك والوثنية ، وتقويم الأخلاق والسلوك ، وتطهير النفس من الأمراض التي تنافي مبدأ الاستقامة أو التقوى ، ثم الانتقال إلى دائرة العبادة المخلصة لله ، والقربات الصافية من الأغراض الدنيئة ، وإحياء الصلة مع الله ، وسيطرة مناخ أو جو رقابة الله في كل حركة وسكنة .

فإذا ما صحت العقيدة واطمأن القلب إلى إقرار معنى « شهادة أن لا إله إلا الله » لا إلى دنيا ولا إلى مغنم ، ولا إلى سلطة أو جاه ، ولا إلى فئة أو بشر ، ولا إلى زعامة مادية ، وإذا ما أذعن القلب واطمأن بمضمون هذه الشهادة في الحياة ، دون رهبة من سلطان ، وأقيم سلطان الله وشرعه في دنيا الواقع الحياتي ، وإذا ما صح السلوك وقوِّمت النفوس ، وتخلقت بأخلاق الله ورسوله .

إذا تحقق كل ذلك ، أمكن الانتقال لدائرة التكاليف الشرعية ببيان الحلال والحرام ، وإقامة فرائض الإسلام ، وتطبيق شرائع الله وأنظمته في نطاق الفرد والجماعة ، لأن العقيدة هي الأصل ، ونحن الآن أحوج إلى الدعوة إلى هذا الأصل من أي شيء آخر ، أما الأنظمة الشرعية الأخرى فهي الفرع ، ولا يوجد فرع من دون أصل .

وهذا المنهج هو ما سار عليه النَّبي ﷺ ، بحسب تعاليم الوحي ، وفي هدي نزول القرآن منجَّماً مقسطاً بحسب الوقائع والمناسبات ، فقد ظل الرسول عليه السلام ـ كما هو معروف ـ يدعو طوال ثلاثة عشر عاماً في مكة إلى تصحيح العقيدة وإصلاح شأن العرب ، وغرس عقيدة التوحيد الخالص لله سبحانه ، في قلوبهم ، ويوجههم نحو إخلاص العبادة لله تعالى ، ويقتلع من نفوسهم الأخلاق المرذولة ، ويمحو من مجتمعهم العادات المستقبحة ، ويستبدل بها خلق الإسلام الأفضل وسجاياه الكريمة .

ثم اتجه النَّبي الكريم في المدينة بعد تكامل نواة الإسلام وإقرار عقائده في ضمائر فئة آمنت بربها ، إلى العمل على تطبيق شرائع الإسلام التي نزل بها التشريع القرآني في مرحلة الاستقرار المدني ، فوجه النبي أصحابه إلى ضرورة التزام هذا التشريع في مختلف النواحي ، في العبادات والمعاملات والسلم والحرب ، والأمن والجناية ، والإرث والوصية ، وأحكام الأسرة من زواج وطلاق ونسب وأولاد وغير ذلك مما تحتاج إليه الجماعة من الأنظمة .

* * *

أصول الدعوة الإسلامية

يتضح من سيرة النبي في دعوته أنه دعا إلى الجوانب الإيجابية والسلبية معاً ، فأوجب الفرائض ، وحرم المنكرات ، ولم يقتصر على توجيه الناس نحو عالم الآخرة ، ممثلاً بالفوز بالجنة وبرضوان الله عند الاستقامة ، وإنما دعا أيضاً إلى حضارة الدنيا في زراعتها وصناعتها وخيرها ، ومقاومة شرها ، وتغيير واقع السوء والمرض فيها ، سواء على مستوى الحياة الخاصة والعامة ، فلا ينفصل دين عن دولة ، كما يدعو بعض الناس اليوم تقليداً للغرب المسيحي ، ولا ينحسر مبدأ التدين عن الهيمنة على شؤون الحياة ، ولا تسير حياة كل إنسان في معاملاته إلا في ظل من رقابة الله والدين وتطبيق شرع الله في كل صغيرة وكبيرة ، فلا يقال مثلاً : إن الدين في القلب ، ولا يسير المسلم على مبدأ أن « الغاية تبرر الوسيلة » ولا يقبل القول بأننا نريد العيش ، دون بحث عن الحلال أو الحرام . فهذا كله من أمراض الجاهلية التي جاء الإسلام لتحطيمها والقضاء عليها .

والجمع بين رسالة الحياتين : حياة الدنيا والآخرة ، كان هو شعار النَّبي ﷺ في أول دعوته كما بينا : « إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة » وقال لأحياء العرب : « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله ، وأن تؤوني وتنصروني ، حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذَّبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد » . فسأله سائل : وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله ﷺ :

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١-١٥٣] .

وفي هذه الآيات تنظيم أصول الدين والدنيا ، فقال له مفروق بن عمرو : « وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه ، فتلا رسول الله ﷺ :

﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] » فقال له مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

والدعوة إلى الحظوة بالجنة أسمى آمال الإنسان ومطمع المعذبين في الأرض : خير مشجع إلى الانضمام في لواء الدعوة الصحيحة . قال الإمام أحمد فيما يرويه عن جابر : « مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم ، عُكاظ ومِجنَّة ، وفي المواسم يقول : من يؤويني ؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة ؟ فلا يجد أحداً يؤويه وينصره . . . إلخ »[1] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٣/١٥٩ .

مصاعب الدعوة

نلاحظ أن تحقيق النَّبي ﷺ لأهداف رسالته أو دعوته لم يكن طريقاً معبّداً أو مفروشاً بالورود ، وإنما لاقى النَّبي ﷺ وصحبه الأوائل من أذى قريش أشد العذاب ، فأغروا به سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله ، ماضٍ في دعوته ، لا يستخفي برسالته ، مجاهر لقومه بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

وكان أصحابه على هذه الحال بالرغم مما كانوا يلقون من المشركين من التعذيب بحر الرمضاء ، وأنهم يسحبونهم على وجوههم ، فيتقون بأكفّهم .

وقد ضرب النَّبي عليه السلام المثل الأعلى لكل داعية إلى الله يريد تخطي مصاعب الدعوة بالتزام دقيق لأخلاق سامية متعينة ، من أهمها مواصلة الجهاد والعمل ، والصدق ، والصبر والتضحية ، والرحمة واللين ، والسماحة والعفو عند المقدرة ، والزهد أو الترفع عن الدنيا .

* * *

كفاح الداعية وأخلاقه

لقد كان رسول الله ﷺ يعمل ليل نهار في سبيل دعوته ، حتى تكاد تفقده الراحة ، وتشغله عن نفسه وأهله وولده ، فيعرض نفسه على الوفود والقبائل العربية ، ويجتمع مع زعماء قريش وسادتهم وغيرهم يناقشهم ويجادلهم ويضرب لهم الأمثال ، حتى إذا ما وجد إجحافاً منهم ، يكاد يقتل نفسه ويهجر أهله ، كما عبر القرآن عن نفسيته وعزمه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ أي : قاتلها ومهلكها [الكهف : ٦] ، ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] .

واشتهر النَّبي ﷺ بصدق الحديث ، فكان يتحدث إلى من لا يعرفونه ، فيقولون : « والله ما هذا بوجه كذاب ، ولا صوت كذاب » .

وفي أثناء جداله عليه السلام مع قومه يقولون : « ما جربنا عليك كذباً » .

قال الإمام أحمد ـ فيما يرويه عن ابن عباس ـ قال : « لما أنزل الله : وأنذر عشيرتك الأقربين ، أتى النَّبي ﷺ الصفا ، فصعد عليه ، ثم نادى : يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : يا بني عبد المطلب ، يا بني فِهر ، يا بني كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح

هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ قالوا : نعم! قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ، ولقب النبي عليه السلام قبل البعثة بالأمين ، مما يدل على صدقه في رسالته .

وكان الصبر الشديد والتضحية الكبرى زاد النبي عليه السلام في دعوته ، فلم يكلّ أو يمل ، ولم ييأس أو يضجر ، امتثالاً لأمر ربه :

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٦٠] .

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

ويمضي النَّبي ﷺ في دعوته واثق الخُطَا ، مطمئناً إلى تحقيق الغاية ولو بعد حين .

أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن خبَّاب بن الأرتّ رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصدُّه ذلك عن دينه . . والله ليُتمنَّ الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » وقال رسول الله ﷺ : « المسلم إذا كان مخالطاً الناس ، ويصبر على أذاهم : خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ، ولا يصبر على أذاهم »[1] .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه عن شيخ من الصحابة .

وكلمة الرسول ﷺ الأولى لعمه أبي طالب الذي طلب منه الكف عن دعوته مشهورة خالدة : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته » . قال ابن إسحاق [1]: ثم تتامَّ الوحي إلى رسول الله ﷺ ، وهو مؤمن بالله ، مصدق بما جاءه منه ، قد قبله بقبوله ، وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم ، والنبوة أثقال ومؤنة لا يحملها ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل ، بعون الله تعالى وتوفيقه ، لما يلقون من الناس ، وما يُردُّ عليهم ، مما جاء به عن الله سبحانه وتعالى ، فمضى رسول الله ﷺ على أمر الله ، على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى .

* * *

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٤٠.

صبر الداعية وسموه وسماحته

بالرغم مما تحمل رسول الله ﷺ من أذى قومه في مكة ، ومن ثقيف بالطائف ، كان يفيض قلبه بالرفق والرحمة واللين في جدالهم وإرشادهم ، كما شهد له القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ويتعهده الوحي بهذه الخصلة السامية ، فتتكرر الأوامر القرآنية له بالتزام جانب اللين ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٦] .

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

ووصف الله نبيه بأنه : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، وقال النَّبي ﷺ عن نفسه فيما رواه أحمد ومسلم عن أبي موسى : « أنا نبي الرحمة » تصديقاً لقول الله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وتأتي السماحة والعفو عند المقدرة متوِّجة لجهاد النَّبي ﷺ في سبيل دعوته ، يرتفع بها عن كل توترات الغيظ والغضب ، ويستعلي بها عن أوضار الحقد والضغينة والبغضاء ، حتى إنه عليه السلام لم يغضب

لنفسه قط ، وإنما كان يغضب لله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] ، ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] . وتتعاقب مواقف الرسول عليه السلام في الأزمات معبرة خير تعبير عن هذا الخلق الكريم . أخرج الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه : « كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء عليهم السلام ، ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول : اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون » .

وثبت في الصحيحين : حكاية ما لقي النَّبي ﷺ من الأذى في ذهابه إلى أهل الطائف يدعوهم إلى دين الله ، وهو أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : « وما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، ثم ناداني ملك الجبال ، فسلم علي ، ثم قال : يا محمد ، قد بعثني الله ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، قد بعثني إليك ربك لتأمرني بما شئت ، إن شئت تطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال رسول الله ﷺ : أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً » .

* * *

موقف الداعية القوي بعد النصر

بعد أن فتح نبي الله مكة طاف حول الكعبة سبعاً ، ثم قال على باب الكعبة : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . . » ثم قال عليه السلام : « يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، ثم قال : يا معشر قريش ، ما تُرون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء »[١] .

وكان من أهم عوامل نجاح الرسول ﷺ في دعوته إخلاصه لله ، وتفانيه في سبيل الله ، وتقواه الكاملة التي جعلته يترفع عن المطامع والمطامح ، ويزهد في الدنيا وفي المال والجاه والسلطان . والزهد في معناه الحقيقي : هو ما قال رسول الله ﷺ حينما سئل عن الزهد : « أما إنه ليس بإضاعة المال ، وتحريم الحلال ، ولكن أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما في يديك ، وأن يكون ثواب المصيبة أرجح عندك من بقائها » .

وقد تمثل زهد النَّبي ﷺ في عروض القرشيين السخية عليه على

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ٤١٢ .

لسان أبي الوليد عتبة بن ربيعة الذي قال له في المسجد الحرام : « يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً ، سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكاً ، ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً (ما يتراءى للإنسان من الجن) تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع (من يتبع الناس من الجن) على الرجل ، حتى يداوى منه » أو كما قال له .

فلما فرغ أبو الوليد من كلامه ، قال النَّبي ﷺ : « فاسمع مني ، قال : أفعل ، فقال :

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ . . . ﴾ [فصلت : ١ـ٥] ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه ، إلى السجدة ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فذهب عتبة إلى أصحابه ، فقالوا له : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : « ورائي أني قد سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعْتَزِلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فمُلكه مُلككم ، وعزّه عزّكم ، وكنتم أسعد الناس به »[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/٢٩٣ وما بعدها .

قال ابن إسحاق : وأنزل الله تعالى فيما عرضوا عليه من أموالهم :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سبأ : ٤٧] .

يدلنا هذا المثل الواقعي وغيره كقراءة « عمر » أوائل سورة « طه » حينما أسلم ، على أن طريق الدعوة التي سلكها النَّبي عليه السلام هو الاعتماد على القرآن الكريم بما فيه من عبر ومواعظ وقصص ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، والقرآن هو الروح المهيمنة على القلوب ، وهو كما يقول النَّبي ﷺ فيما رواه الترمذي عن علي « حبل الله المتين ونوره المبين »(١) ويقول أيضاً فيما رواه الطبراني بإسناد جيد : « طرفه بيد الله ، وطرفه الآخر بيد الناس » فأي جزء أخذنا منه بصدق وحزم سرى سره إلى القلوب ، فتأثرت به ، ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وفي القرآن إجمال وتفصيل للآيات والشواهد الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته ، فمن المجمل قوله عز وجل : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٣ـ١٦٤] .

---

(١) ورواه أيضاً الحاكم عن ابن مسعود .

ثم فصَّل القرآن في خلق السماء والأرض والنبات في أوائل سورة الرعد (الآيات : ٢ـ٤) :

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٢ـ٤] .

وفي أوائل سورة النحل (الآيات : ٣ـ١٧) حديث مفصل عن خلق السموات والأرض والإنسان والأنعام والنباتات ، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحر والفلك وإلقاء الرواسي في الأرض ، وفي سورة الروم بيان الآيات الكريمة من بدء الخلق إلى نهاية البعث (٢٠ـ٢٦) وفي سورة الطارق (الآيات : ٥ـ٧) ، وفي سورة الحج (آية : ٥) ، وفي سورة عبس (الآيات : ٢٤ـ٣٢) بيان قاطع عن بدء خلق الإنسان وأطواره ، ومصادر معيشته من خيرات الأرض .

* * *

منطلقات الدعوة

إن ارتباط الداعية بالقرآن ارتباط جذري لا غنى عنه ، فكان عليه الصلاة والسلام يديم قراءة القرآن ويسأل الله ، فيقول : « اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي » .

والارتباط أيضاً بالسنة النبوية أمر ضروري جداً ، لأنها ترجمان القرآن ، والصورة العملية للإسلام ، فما من علة أو مشكلة في الحياة إلا وفي السنة علاج لها ، وكان عليه السلام بما أوتي من جوامع الكلم والخلق العظيم يعبر عن المعنويات بصور المحسوسات لتقريبها إلى الأذهان ، ويصور للناس ألوان الترغيب والترهيب بأصدق التجارب الحسية وأصح الأفكار التي لا مكابرة لعقل فيها ، ويوضحها بأسلوب ممتع جذاب مشرق يتألق بنور النبوة ، مما يصعب على المرء تكذيبه أو الطعن فيه . وقد أصاب المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة المنعقد في « المدينة » بتاريخ ٢٤ـ٢٩/ ٢/ ١٣٩٧ هـ ـ ١٢ـ١٧/ ٢/ ١٩٧٧ م حينما قرر في البند (٣٥) من توصياته : « اعتماد القرآن والسنة في مجال الدعوة أساساً ، وسيرة الرسول ﷺ منهاجاً ، وتربية المسلمين تربية عملية على عقيدة التوحيد الخالص الخالي من البدع والخرافات » .

وهكذا نجد في منهج دعوة الرسول ﷺ في سيرته خير الأسس والمبادىء للدعوة المتجددة المعطاءة في كل زمن إلى الإسلام دستوراً وعقيدة ، ومنهج حياة ، وتربية حصيفة ، ففي منهجه واقعية وتجربة ، وعقلانية وحكمة ، تتجه إلى فهم نفسية المخاطبين ، ودراسة البيئة ، وإذكاء المدارك وملاحظة ما تتطلبه الاستعدادات في مراحل نموها وتطورها ، وتصحيح الأوضاع الاجتماعية ، فتمنع السوء ، وتقر الحسن ، وتنقل المجتمع نقلة حية سريعة نحو التعاليم الربانية إذا تضافرت جهود الأفراد والجماعات :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

* * *

أثر النجاح في الدعوة

وكان من أثر نجاح الرسول ﷺ في دعوته على سبيل المثال مسارعة الناس إلى قبول دين الله ، ومجاهدتهم في سبيله ، كما تمثل في بيعة العقبة ، مما ثبت في الصحيحين ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، أحد نقباء الأنصار ، قال : « بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى ، أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأُخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سُترتم عليه إلى يوم القيامة ، فأمركم إلى الله : إن شاء عذب ، وإن شاء غفر » .

أسأل الله الكريم أن يجعلنا دعاة مخلصين ، عاملين بهدي القرآن والسنة ، مُتمكِّنين في الأرض ، لإعلاء كلمة الله تعالىٰ .

* * *

نبذ الامتيازات
في ميزان الدعوة الإسلامية

تتحكم الأهواء الشخصية والنزعة المادية في الإنسان والمجتمع ، فتفتك أحياناً بالعناصر الخيرة في أصل الفطرة الإنسانية ، وتدفع بعدئذ بمختلف ألوان العنف والقسوة إلى مقاومة الدعوات الإصلاحية ، ومحاربة الأخلاق ، والتنكر لهداية الأديان الضرورية في عالم البشرية للحد من طغيان المادة ، وطمع الذات ، وقهر السلطان ، وتسلط الزعامة ، وإغواء الشيطان ، وإلا كانت الحياة جحيماً لا يطاق .

ويفتتن أغلب الناس بمظاهر الغنى والجاه أو المال والمنصب ، ظانين أن مدار التقييم والظفر في الدنيا إنما هو العزة والشرف والمهابة والكرامة بين الناس ، وأن مدار التقتير والتضييق هو الهوان والضعف ، وحينئذ قد يكفر المرء بالإسلام من حيث لا يشعر ، إذا استرسل في هذه الأفكار السطحية ، معترضاً على الله مثلاً بأنه كيف يوسع الرزق على فلان الفاسق أو الفاجر أو الكافر ، ويقلل المال على العابد الناسك ، بل قد يزلق فقير الحال فيقول : إن المفلس في الدنيا مفلس في عالم الجزاء والعدل في الآخرة ، وقد يخدع الكافر الغني أو غيره فيظن أن سعة الرزق دليل على صلاح الحال وسلامة الاعتقاد واستحقاق الجنة ؟!! .

ويحسب الناس أن الامتيازات المعنوية في العصبية والقبلية ،

والنسب والحسب ، أو الامتيازات المادية في الترف والغنى والمال ، والحكم والسلطة والجاه ، تجعلهم أحق من غيرهم لزعامة الإصلاح أو للنبوة والرسالة ، أو على الأقل لاستحقاق بعض المزايا والإعفاءات من الأحكام العامة ، أو الأولوية والسبق في منح المواهب والعطايا الإلهية ، سواء في مجال الحياة الحسية الدنيوية أو عالم الشهادة ، أم في مجال الحياة الأخروية الخالدة أو عالم الغيب .

وقد بدأ هذا الصراع والتزاحم بين أرباب المال والجاه وبين دعاة الحق والفضيلة منذ بدء دعوة الأنبياء لإصلاح البشرية ، واستحكمت حدة الصراع في تاريخ الإسلام بين النبي محمد ﷺ وبين عرب قريش عند إعلان البعثة النبوية ، وتفاقم خطر المادة على الأخلاق والقيم ومبادئ الدين في عصرنا الحاضر ـ عصر النور والذرة والكهرباء ـ .

ففي التاريخ القديم عانى أنبياء الله الكرام وأتباعهم (أوساط الناس وفقراؤهم غالباً) من غطرسة أرباب المال وأصحاب الجاه والسلطان والمصالح ، أشد ألوان العذاب ، فقال قوم صالح مثلاً :

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر : ٢٥] .

وذكر القرآن اعتراض جماعة من قوم نوح :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود : ٢٧] .

وعن قوم هود تكلم القرآن :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٣ـ٣٤] .

وقال فرعون وملؤه عن موسى وهارون :

﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧] .

﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الزخرف : ٥١] .

وكذلك كان شأن خاتم الأنبياء والرسل مع أشراف قومه أصحاب السيادة ، حيث إنهم رفضوا قبول دعوة الإسلام الجديدة ، وعتوا وولوا واستكبروا عن الإيمان حسداً وبغياً وحقداً ، ولجوا في طغيانهم يعمهون قائلين :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦] أي اجعلوه لغواً وباطلاً ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتوه يوماً ، غلبكم ودحض حجتكم .

هذا كما هو واضح موقف الفوضوي المهرِّج الذي لا حجة له مقبولة ، ولا منطق عنده معقولاً .

العنصرية والقبلية :

فمن حججهم الواهية في ميزان الإسلام ودعوة الحق : اعتمادهم أحياناً على الاستعلاء العصبي أو القبلي أو العنصري ، ممثلاً ذلك في قول أبي جهل حينما سأله الأخنس قائلاً : « يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعَموا فأطعمنا ، وحَمَلوا فحَمَلنا ، وأعطَوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذَينا[1] على الرُّكَب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه! والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه » . ولقد كان زواج زيد بن حارثة المولى من زينب بنت

(١) تجاذى : أقعى .

جحش ذات الشرف القرشي العالي من أجل امتحانها ، لتحطيم مبدأ العصبية القبلية والشرف الجاهلي ، وجعل الشرف في الإسلام والتقوى .

وأحياناً كانوا يعتمدون على تفوق الزعامة وتوفر الغنى والمال والجاه لهم ، فيكفرون بمحمد رسولاً من عند الله ، لأنه يتيم أبي طالب ومن فقراء قريش قائلين :

﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : ١١] .

﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : ٣٥] .

﴿ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم : ٧٣] أي مجلساً .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] ، والقريتان هما : الطائف ومكة ، والرجلان هما : الوليد بن المغيرة في مكة ، وعروة بن مسعود الثقفي في الطائف .

ثم التزموا جانب العناد والإصرار على الباطل ، فقالوا هازئين بالنَّبي ﷺ :

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت : ٥] .

فرد القرآن الكريم على أمثال هؤلاء المدعين أحقيّة النبوة دون مسوغ :

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، أي إنه كما لا تفلح الزعامة أن تكون أساساً

للنبوة ، كذلك لا يصلح المال أساساً للشرف ، خلافاً لما يقولون : « إن الشرف وليد المال » ، وأما النبوة والرسالة ذات الدرجة الرفيعة ، فلها مقومات شخصية معينة كفيلة بتحقيق نجاح الدعوة :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص : ٦٨] .

وحينما يئس هؤلاء الزعماء والسادة من إبطال النبوة وإنكار الرسالة ، لجؤوا إلى المساومة لإعفائهم من بعض التكاليف العامة ، أو لإعطائهم امتيازات تتناسب مع كبريائهم وغرورهم ، فقالت ثقيف (القبيلة التي كانت تسكن الطائف) للنبي : « لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب ، فلا يكون علينا زكاة ولا جهاد ، ولا صلاة ، وإن كل ربا علينا فهو موضوع ، وكل ربا لنا فهو لنا ، فإن قالت العرب : لم فعلت ذلك ؟ فقل : إن الله أمرني . . » وطمع القوم أن يعطيهم النَّبي ﷺ ما طلبوا ، فأنزل الله تعالى :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

[الإسراء : ٧٣-٧٥] .

وتنازل الزعماء إلى حد الرضا بتمييزهم في المجالس ، واستقلالهم بالقعود مع الرسول ﷺ ، مترفعين عن مجالسة الأدنياء ، إرضاء لغرور الزعامة في الكفر ووساوس الشيطان ، كما كان يقول قوم نوح له : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ، وزعماء قريش يقولون : كيف نجلس إليك يا محمد ، وأنت تجلس إلى صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وعمار بن ياسر وغيرهم من العبيد ؟! اطردهم عنك ونحن نحضر مجلسك ونقبل

دعوتك ، روي في التفسير ذلك على لسان خباب بن الأرت قائلاً :
« جاء الأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن الفزاري ، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النَّبي ﷺ حقروهم في نفر من أصحابه ، فأتوه فخلوا به ، وقالوا : إنا نريد لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك ، فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد ؟! فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : نعم ، قالوا : فاكتب لنا عليك كتاباً ، قال : فدعا بصحيفة ودعا علياً ، ونحن قعود في ناحية ، فنزل جبريل فقال :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

كما نزل قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

ولقد صور أستاذنا الشيخ صالح فرفور رحمه الله هذه المناقشة تصويراً بديع النظم فقال :

قالت قريش : أيا للعرب تسوية ... هل يستوي عجم مع نسل قحطانا
نحّ الصعاليك ، واسترشد غطارفنا ... يأتيك كل كريم الأصل مذعانا
أجبت : تبت يدا عمي أبي لهب ... بلال منا ، وزد في الآل سلمانا
إنا عبيد ، ورب العرش بارئنا ... وإن أكرمنا لله أتقانا

وهناك موقف قرآني آخر حازم مصحح للسلوك ، مقرر لمبدأ المساواة المطلقة بين الناس دون تمييز بينهم في الجنس واللون ، والنسب والحسب ، والمنصب والجاه ، وذلك فيما هو معروف من سبب نزول أوائل سورة « عبس » .

روي في التفسير أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش ، وقد طمع في إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه ، إذ أقبل ابن أم مكتوم ، وكان أعمى ، وممن أسلم قديماً ، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، ويلح عليه ، وود النَّبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل ، طمعاً ورغبة في هدايته ، وعبس في وجه ابن أم مكتوم ، وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله تعالى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [عبس : ١-٢] الآيات .

وتذكر بعض التفاسير أنه كان عند النَّبي ﷺ رهط من زعماء قريش ، كعتبة بن ربيعة ، وأخيه شيبة ، وأبي جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وغيرهم ، وكان النَّبي ﷺ شديد الحرص على إيمان هؤلاء ليقتدي بهم الأتباع ، فجاء ابن أم مكتوم . . . إلخ .

وبذلك دق الإسلام آخر مسمار في برج العصبية والزعامة الفارغة التي لا تعتمد على غير التسلط والهوى والنزعة الاستبدادية ، واستقرت دعوة الرسول ﷺ على نبذ كل امتياز غير العمل الصالح ، فكان عموم الخطاب الإلهي من دون تمييز هو رصيد هداية السماء ونداء القرآن في كل حين ومكان : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وروي في حديث حسن في سنن أبي داود ، عن جبير بن مطعم ، عن النَّبي ﷺ قال : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل

على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » .

وروى مسلم والنسائي في حديث آخر صحيح : « من قاتل تحت راية عِمِّية[١] يدعو لعصبية ، أو ينصر عصبية ، فقتلته جاهلية » .

* * *

(١) العمِّية : الكبر والضلال .

موقف الرأسماليين العتاة من الدعوة

وكذلك ليس للغنى والمال وكثرة الأولاد والاعتزاز بهم حساب في تقدير الإسلام ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ؛ لأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، ولو كانت تزن شيئاً ، ما سقى منها كافراً جرعة ماء ، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٦ـ٣٧] .

هذا هو الرد القاطع على أولئك الكفار القائلين للمؤمنين : إذا كنا أغنياء في الدنيا ، والرزق من عند الله كما تقولون ، فنحن أكرم على الله منكم ، إذ أنتم فقراء ضعفاء ، وما نحن يوم القيامة بمعذَّبين ، إما لأنه لا بعث ولا جزاء ، أو نحن أصحاب الجزاء الحسن إن كان هناك جزاء ، لأن الله أعطانا لكرامتنا ومكانتنا عنده .

ويتكرر في القرآن الكريم ذم الدنيا ، والتهوين من شأنها وتحقيرها وأنها متاع فانٍ لا قيمة له ، حتى لا يفتتن الناس بزخارفها ، أو بغنى أغنيائها ، فما ذاك كله إلا للتمتع القليل في الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، قال الله سبحانه :

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى : ٣٦] .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف :٣٣-٣٥] ، أي إنه خشية أن تكون البشرية كلها كفاراً ، لميلهم إلى الدنيا وزخارفها بطبعهم ، لجعل للكفار قصوراً مسقوفة بالفضة ، مزركشة بأبهى ألوان الزينة ، ولها أدراع أو مصاعد فضية .

لكن طغاة المال سوف تأكل الحسرة قلوبهم ، وزعماء قريش ونحوهم الذين كانوا يسخرون من أتباع محمد ﷺ الفقراء ، كبلال وصهيب وعمار في الدنيا ، سيجدون الجزاء الأليم في الآخرة بسبب كفرانهم ، قال الله تعالى مبيناً هذا الموقف :

﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٩] .

وحكى الله تعالى أقوال هؤلاء الزعماء :

﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص : ٦٢-٦٤] .

والمعنى : أنهم يقول بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر : ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدّهم من الأشرار الأراذل الذين لا خير فيهم ؟ قال ابن عباس : يريدون أصحاب النَّبي ﷺ الفقراء ، كبلال وصهيب وعمار ، فيقولون : أين عمار ، أين صهيب ؟ وقال مجاهد : هذا قول أبي جهل ، يقول : مالي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً ؟ وحدد ابن كثير المراد فقال : وهذا ضرب مثل ، وإلا فكل الكفار هذا حالهم ، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخل الكفار النار ، افتقدوهم فلم يجدوهم ، فقالوا :

﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴾ [ص : ٦٢] .

وبهذا تتبدد أوهام الأغنياء ، بأنهم أصحاب العلو والرفعة ، أو أنهم أهل التعظيم والشرف والتقدير ، ولم يحملهم على مثل هذه الأوهام سوى المال ، فإن المال سبيل الطغيان ، كما جاء في الآية الكريمة :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق : ٦-٧] والغنى : مَبْطرة مأشَرة ، كما يقولون ، أي إنه داعٍ إلى البطر والأشرة (أي شدة المرح وغمط الناس الحق) . وخير مثال لذلك حال فرعون وقارون وأصحاب الثروات الضخمة ، لهذا كان الإيمان بالقناعة وبالرزق الحاصل ، بعد بذل الجهد الكافي في السعي : هو شعار المؤمن ، قال الله تعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

وكذلك القوة الجسدية أو العسكرية ليست سبيلاً للتمييز أو الامتياز والتفوق ، لقوله تعالى :

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف : ٨] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ [قَ : ٣٦] .

وهذا إنذار لقريش ، لإعلامهم بأن القوة الجسدية أو العسكرية ، ليس لها أدنى تقدير في ميزان الحق والعدل والمساواة ، وأنذر الله في كتابه بما حدث لفرعون وقومه من الإغراق في البحر ، فقال :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٠-١٤] .

ورد الله تعالى على أبي جهل حين سمع بأن جهنم ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ٣٠] ، فقال : إني ألقاهم وحدي ، والرد في قوله سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ [المدثر : ٣١] أي شديدي الخَلْق لا يقاوَمون ولا يغلَبون ، وفي قوله عز وجل :

﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

[التحريم : ٦] .

وقيل : إن أبا الأشد كَلْدة بن أُسَيد بن خلَف قال : يا معشر قريش ، اكفوني منهم اثنين ، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر ، إعجاباً منه بنفسه ، فنزلت الآية المذكورة .

* * *

أهل الحسب والنسب

من أصول الإسلام القطعية أيضاً : أنه ليس للنسب ولا للحسب تأثير في الهدى والضلال ، ولا في المفاضلة بين الناس ، لقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾(١)

[المؤمنون : ١٠١ـ١٠٤] .

وقد حدد الرسول ﷺ الطريق الواضح لأقاربه وأمته ، مبيناً لهم ما يصح الاعتماد عليه في عالمي الدنيا والآخرة ، أخرج الترمذي في حديث حسن صحيح عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤].

قال رسول الله ﷺ : « يا صفية بنت عبد المطلب ، يا فاطمة بنت محمد ، يا بني عبد المطلب : إني لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما شئتم » .

وقد أعلن رسول الله ﷺ نداءه لقومه دون تمييز قائلاً : « يا بني كعب بن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم

---

(١) كالحون : عابسون أو متقلصو الشفاه عن الأسنان .

من النار ، يا فاطمة بنت محمد ، أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لك من الله شيئاً »[١] . وفي حديث آخر : « من بطَّأ به عمله ، لم يسرع به نسبه »[٢] . وفي حديث ثالث : « إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي : ألا إني جعلت نسباً ، وجعلتم نسباً ، فجعلت أكرمكم أتقاكم ، فأبيتم إلا أن تقولوا : فلان ابن فلان خير من فلان ابن فلان ، فاليوم أرفع نسبي ، وأضع نسبكم ، أين المتقون ؟ »[٣] .

وجاء في كتاب عمر رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته ، والناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء » .

وكون النسب لا أساس له في الإيمان والكفر تقرر في القرآن الكريم في مواضع أخرى ، حتى يصبح ذلك أصلاً عاماً للذرية الصالحة أو الطالحة ألا وهو الإيمان والعمل الصالح والتواضع ، كما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام ، حيث بارك به الله سبحانه ، وبمن بشره به وهو إسحاق عليه السلام ، فقال تعالى :

﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾

[الصافات : ١١٣] .

* * *

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) رواه الطبراني والبيهقي مرفوعاً وموقوفاً عن أبي هريرة رضي الله عنه .

آثار إبطال الامتيازات

يمكن مما تقدم عن تحطيم الامتيازات ودحرها وإلغائها في شرعة الإسلام استخلاص الآثار الثلاثة الآتية :

الأول ـ وهي أن المساواة بين الناس في نطاق الحقوق والواجبات مبدأ أساسي من مبادئ الإسلام ، فلا مجال للتمييز بين الناس بسبب الجنس أو اللون أو النسب والحسب ، أو المنصب والجاه ، أو القوة والضعف ، أو الشهرة والسن والغنى والمحبة والبغض ، لأن منطق النزعة العالمية للإسلام يستلزم إقرار مبدأ المساواة دون نظر لغير البناء والإبداع والعمل الصالح .

ومظاهر المساواة في منهاج الإسلام تنحصر في أحوال ثلاثة :

١ـ في القيم الإنسانية المشتركة : أي إن الأجناس والألوان والأنساب والأحساب ينظر إليها بمنظار واحد في تقدير الإسلام . والمثال الرائع لهذا أن إيجاب النَّبي ﷺ حد السرقة على فاطمة المخزومية التي سرقت ، وحُكْم عمر رضي الله عنه بالقصاص على جَبَلة بن الأيهم الأمير الغساني الذي هشم أنف الأعرابي الفَزاري : دليل واضح على التزام مبدأ المساواة فعلاً دون حساب للحساب أو الوجاهة والزعامة ، لأن الإسلام سوى بين الأمير والسوقة ، و « الناس سواء كأسنان المشط »[1] .

---

(١) رواه الخطيب البغدادي وابن عدي ، وهو ضعيف . =

و « ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى »[١] .

٢ـ المساواة أمام القانون وفي التوظف : أي إن الناس جميعاً سواء في مجال التكاليف والالتزامات والحقوق ، وفي الحدود والعقوبات ، وفي تكافؤ الفرص ، بدليل قول النَّبي ﷺ : « إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفسي بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها »[٢] .

٣ـ المساواة في جزاء العمل : أي إنه مادام الأفراد متساوين في العمل ، فهم متساوون في الأجر أو الجزاء ، دون تمييز أو محاباة بين عظيم ووضيع ، وأسود وأبيض ، وغني وفقير مثلاً .

الثاني ـ هدم الإسلام برج العصبية القبلية والطبقية ، وحارب كل أشكال التفاوت والتمييز ، لقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وسبب محاربته للطبقية : هو أنها سبيل الظلم والتحكم والطغيان وغمط الحقوق والغصب ونحو ذلك ، فالأسرة أو القبيلة أو الأمة المستغلة لا تلتزم قانون العدل والإنصاف عادة ، ولا تستقيم في سلوكها ، وإنما تحرص على حماية مصالحها الخاصة فقط ، وبقاء سلطانها ونفوذها ، وتشيع في أجوائها مظاهر قاتمة من الحقد والضغينة ، مما يؤدي إلى تفكك الروابط الاجتماعية ، وبالتالي إضعاف الأمة وهزالها وانحدارها .

---

(١) رواه الديلمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن عائشة رضي الله عنها .

ومن أجل ترسيخ حق المساواة مطلقاً ، سبق الإسلام كل المواثيق والمنظمات العالمية ، والحملات الدولية التي تندد بالتفرقة العنصرية ، ومنها قرار الأمم المتحدة عام ١٩٧١ المخصص لمكافحة التمييز العنصري وفضح أساليبه بكل أشكاله ، ومع الأسف كان عصر النهضة الأوربية الحديثة قائماً على نظام الطبقات العنصري ، وما تزال أمريكا زعيمة العالم الحر ، وبريطانيا ودول غربية أخرى تؤيد من الناحية العملية مبدأ التفرقة العنصرية الذي يشجبه العالم كله ، والضمير الإنساني الحر ، سواء في بلاد الولايات المتحدة ذاتها مع الزنوج ، أو في روديسيا وجنوب أفريقية قبل استقلالها ، أو في مستعمرات البرتغال ضد الملونين ، أو في الصومال أو في الحبشة ضد أريتريا وما تفعله من قتل وهدم للقرى والمدن وإبادة جماعية ، أو في إسرائيل وليدة الحركة الصهيونية التي تمثل أبشع صور المفهوم العنصري ضد العرب الأصليين في فلسطين المحتلة ، وممارساتها العدوانية ضد الآمنين من قتل وسجن ، وتعذيب واضطهاد ، وهدم منازل على رؤوس أصحابها ، ومصادرة الأراضي والممتلكات ، والأموال الخاصة ، وأوقاف المسلمين ، وإحراق المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩م ، وذلك على الرغم من وجود الأمم المتحدة وقراراتها العديدة ، وإعلان وثائق حقوق الإنسان .

الثالث ـ إن العمل أو الإبداع والنتاج وحده : هو أساس الكرامة الإنسانية ، والتمييز في ثواب الدنيا والآخرة ، وتفاوت الأجور ، ففي حقائق الإسلام لا مجد إلا للعاملين ، ولا فضل إلا للمخلصين ، ولا تمييز لأحد إلا بالإيمان والعمل الصالح المفيد لخيري الدنيا والآخرة ، ويكون الشرف والمجد للإسلام وحده وللتقوى ، والتقدير للعمل . قال النَّبي ﷺ : « يا أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على

عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[١] .

وقال عمر رضي الله عنه : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فإن من قصر عمله ، لم يسرع به نسبه » .

* * *

(١) رواه البيهقي عن جابر ، ولكن بسند فيه من يجهل : أن النَّبي ﷺ خطب في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع ، فقال : « يا أيها الناس . . . » الحديث .

الخطاب السياسي للداعية

لقد كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة : هي أنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعَلَّمُن ، والله ليُصعقن أحدكم ، ثم ليَدَعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي ، فبلَّغك ، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ قما قدمت لنفسك ؟ فلَيَنظُرنَّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه ، فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ، ولو بشق تمرة ، فليفعل ، ومن لم يجد ، فبكلمة طيبة ، فإن بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها ، إلى سبعمئة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

هذه الكلمة الجامعة ممن أوتي جوامع الكلم ﷺ ، تحدد الطريق السوي للمسلم الذي يرجو النجاة والسلامة ، فلا امتياز لأحد على آخر إلا بمقدار عمله ، وبحسب مواهبه وكفاءاته ، ففي ميدان الأعمال وحده يتنافس المتنافسون ، والشرف للإسلام والتقوى ، لا للمال والجاه ، وعليه فلا يستوي حينئذ المؤمن والكافر ، والبَرّ والفاجر ، والعالم والجاهل ، والمنتج والعاطل ، والمجاهد والقاعد ، والعامل والخامل .

وقد أبعد الإسلام أبا جهل وأبا لهب وأبا سفيان (قبل إسلامه)

الزعماء ، واعتمد على أناس وسطاء أو فقراء ، لكن قلوبهم عامرة بالإيمان ، وحياتهم مليئة بالتضحيات والأمجاد ، ومن ثَمَّ قام صرح الإسلام على عاتق أولئك المجاهدين الذين آثروا الخلود على الفناء ، والعمل الناجع الصالح على الفتور والاسترخاء ، والتخاذل والكبرياء .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن الله أذهب عنكم عُبِّيَة[١] الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، الناس بنو آدم ، وآدم من تراب ، مؤمن تقي ، وفاجر شقي ، لينتهين أقوام يفتخرون برجال ، إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكُونُنَّ أهون على الله من الجُعلان التي تدفع النتن بأنفها »[٢] ، وفي لفظ آخر وهو للترمذي : « لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم ، أو ليكونُن أهون على الله عز وجل من الجُعَل[٣] الذي يُدَهْدِهُ الخُرْء بأنفه ، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي ، وفاجر شقي ، الناس بنو آدم ، وآدم خُلق من تراب » .

لقد استطاع الإسلام بفضل الإيمان بالله تعالى وبمبادئ القرآن ، وبحكمة النَّبي ﷺ التي هي روح العلم النافع ، أن يصهر العرب ويذيب سوء الطباع والأخلاق كما يذاب الملح بالماء ، وذلك بتجاوز العصبية القبلية ، وإحلال روح المساواة بدلها ، وجعل الناس صنفين فقط : إما مؤمن تقي ، وإما فاجر شقي ، ومظاهر هذه الإذابة تظهر فيما يأتي :

---

(١) العبّية : الكبر .

(٢) رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، والبيهقي بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) الجُعَل : دويبة ، نوع من الخنافس .

إذابة الفوارق العنصرية

إن الحملة الحضارية الإنسانية الشاملة ، التي اقترنت بالإسلام ديناً ونظاماً ، اقتضت إقرار المبادئ أو القيم الثابتة الخلقية الأصلية ، ونبذ كل مظاهر التخلف والتعثر ، والرجعية والتفرقة الظالمة بين أبناء البشر ، دون اعتماد على ميزان معقول ، أو حساب صحيح للنتائج .

ومن الأصول الحضارية في الإسلام ، ومنهجه العام في الحياة السياسية والاجتماعية : إعلان مبدأ المساواة التامة ، دون تمييز بين الناس بسبب الجنس أو العرق ، أو اللون ، أو النسب والحسب ، أو الدين ، أو المنصب والجاه وسلطة الحكم ، أو السن ، أو الغنى والمال ، أو المحبة والبغض ، وذلك تجاوباً مع نزعة الإسلام العالمية ، وعموم رسالته للبشرية ، وجعل تنظيماته وشرائعه من الحلال والحرام رحمة للعالمين .

وقد تقدم بيان مظاهر المساواة الثلاثة : في القيم الإنسانية المشتركة ، وأمام القانون والقضاء وفي تكافؤ الفرص ، وفي جزاء العمل .

ففي المظهر الأول : ألغى الإسلام نظام الطبقات ، وحارب العنصرية البغيضة ، والعصبية الجاهلية ، وأهدر نظام الأسر الراقية ، والألقاب العالية ، وسوى بين دماء الناس ، فليس هناك دم أزرق نبيل ، وآخر عادي من دماء العامة ، مما يجعل أفكار النازية ونحوها تافهة باطلة .

وفي المظهر الثاني : ألغى الإسلام انحصار الرتب العالية في الجيش والسلطة في فئات الأشراف ، وأبطل قصر التوظف على أبناء الباشوات والبكوات (البهوات) وأمثالهم ، ولم يميز في تطبيق العقاب بين الشريف والوضيع .

وفي المظهر الثالث : حارب الإسلام التفاوت في الأجور والرواتب وعوائد النفط بسبب امتياز أسرة معينة أو فئة محددة من القرابة مثلاً للحاكم ، وجعل الحق في الأجور بمقدار التفاوت في الخبرة والإبداع والنتاج وتقديم ثمار الأعمال ، والكفاءة ، كما جعل عوائد المال العام حقاً للجميع .

الكرامة الإنسانية :

وفي سبيل إقرار مبدأ المساواة في مظاهره الثلاثة المذكورة نظرياً وعملياً ، نادى الإسلام بوحدة السلالة البشرية ، وأن الناس أبيضهم وأسودهم من أب واحد وأم واحدة ، وهم سواء في مبدأ الكرامة الإنسانية ، فلا ينبغي أن يترفع إنسان على آخر ، أو يستعبد إنسان غيره بسبب اللون ، أو الحسب ، أو القوة ، أو الغنى ، أو العلم ، أو الفكر والمواهب والفضائل ، أو الانتماء لجماعة خاصة ، قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

[النساء : ١] .

وأعلن القرآن الكريم مبدأ تكريم الجنس البشري عامة في قول الله سبحانه : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠].

هذا النص الصريح يدل على أن التكريم العام شامل لكل إنسان ، وكرامته ملازمة لإنسانيته ، والإنسان أخو الإنسان أحب أم كره ، والإنسانية مكرمة سواء في السلم أو في الحرب ، وحينئذ لا يصح أن يكون الصراع على المصالح الخاصة ، وبالتالي إراقة الدماء واستباحة الأنفس البريئة سبباً لتجاوز كرامة الإنسان أو إهدارها ، فلا تمثيل ولا تقتيل دون حق ، ولا تشويه ولا تجويع ولا إظماء ، يقول النَّبي ﷺ : « إياكم والمثلة »[١] ، ويقول أيضاً : « إذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة »[٢] .

وكرامة بني آدم تقضي عدم التفريق أو التمييز في المعاملة بين فئة وفئة ، ولا بين جنس وجنس ، ولا بين فقير وغني ، أو قوي وضعيف ؛ لأن الإسلام يجعل الناس جميعاء سواء ، ومرجعهم إلى أصل واحد ، العدل يعمهم ، والرحمة تشملهم ، والخير والسعادة حق كل فرد منهم ، قال النَّبي ﷺ في خطبة الوداع :

« يا أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[٣] .

وفي حديث آخر : « الناس مستوون كأسنان المشط ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بتقوى الله »[٤] .

ولقد كان إعلان الإسلام لمبدأ الوحدة الإنسانية ـ وحدة الأصل

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) رواه أحمد ومسلم عن أبي يعلى شدّاد بن أوس رضي الله عنه .

(٣) رواه البيهقي في سننه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٤) رواه الديلمي عن أنس رضي الله عنه .

والمنشأ ـ سبيلاً لتقرير مبدأ المساواة بين الإخوة في الحقوق الفطرية الطبيعية ، وللرد على اليهود الذين جعلوا رحمة الله حكراً على شعبهم ، وأن الإله إله بني إسرائيل وحدهم ، ولا يحق لأي شعب آخر الإيمان به أو الانتماء إليه ، لأن ديانة اليهود المحرفة ديانة عنصرية مغلقة .

أما الإسلام : فمبدؤه أن الله تعالى إله جميع العالمين من إنس وجن ، بل وجميع المخلوقات من نبات وجماد وحيوان ، قال الله تعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] .

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] .

ثم إن مبدأ الكرامة الإنسانية يقضي بتحرير الإنسان ، وتوفير كل أسباب العزة والكرامة والشرف له ، عملاً بتكريم الله له ، وإزالة كل عوائق التفرقة بين أبناء البشرية بسبب الجنس واللون وغير ذلك مما تقدم ، لأن الكرامة : هي الإحساس المعنوي بشخصية الإنسان ، والإنسان : هو أساس كل القيم والحضارات التي تقوم على الخير والسلام والعدل والإخاء والحرية ، ولن يؤمن بالحرية من لا يؤمن بالإنسان وكرامة الإنسان ، فأي إنسان يولد بالفطرة ، يولد حراً متساوياً في الحق والكرامة مع سائر الناس .

توضيح عامل التفرقة بين الناس :

العوامل كثيرة مادامت الأهواء والشهوات مسيطرة ، ومادام الإعراض عن هدي الله في قرآنه هو الشائع ، وأهم هذه العوامل :

١ـ **الجنس** : لا يميز الإسلام بين الأجناس والأعراق ، فليس هناك جنس أو شعب هو بنشأته وعنصره ودمه أفضل من غيره ، وإنما الناس جميعاً إخوة في النسب ، ووحدة في الأصل والمنشأ ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، فمهمة الشعوب الحقيقية في العالم هي التعارف والتعاون والتآلف ، لا التناكر والتفاخر والتزاحم الكريه غير العفيف ولا الشريف ، ولا تفاضل إلا بالإيمان الصحيح والتقوى والعمل الصالح البنّاء ، فبالعمل والإبداع والنتاج ، وبالنفع العام للإنسانية فقط يفضل الشخص على غيره .

٢ـ **اللون** : لا يميز الإسلام أيضاً بين الناس بسبب اختلاف اللون ، الذي هو من آثار البيئة الجغرافية أو الأصل البشري ، قال الله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] .

وقال سبحانه أيضاً : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وقد فطن الإسلام إلى مشكلة اللون من بادئ الأمر ، فقرر مبدأ المساواة التامة بين الأبيض والأسود ، حدث مرة أن النَّبي ﷺ سمع أبا ذر الغفاري يعيِّر صحابياً بأمه ، ويدعوه بقوله : يا بن السوداء ، فغضب

النَّبي ﷺ غضباً شديداً ، وقال مستنكراً : « طف الصاع ، طف الصاع ، طف الصاع (أي تجاوز الأمر حده) ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » فما كان من أبي ذر إلا أن وضع خده على التراب ، وقال لصاحبه : طأ بقدمك على رأسي ، لما استشعر من تعديه عليه .

وفي عبارة أخرى لهذه القصة : أن رجلاً قال : لقيت أبا ذر بالرَّبذة (مكان قرب المدينة) وعليه حُلَّة وعلى غلامه حُلّة ، فسألته عن ذلك ، فقال : إني سابيت رجلاً ، فعيَّرته بأمه ، فقال لي النَّبي ﷺ : « يا أبا ذر أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ، إخوانكم خَوَلكم (أي أعوانكم وحشمكم) جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبَس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم »[1] .

وشاهد عمر رضي الله عنه قوماً في مكة ياكلون ، والخدم يقفون لهم ، فغضب وقال للسادة : « ما بال قوم يستأثرون على خدامهم ؟ » ، وأمر بالخدم ، فأكلوا مع السادة في جفان (أي آنية) واحدة . وقال الرسول ﷺ مؤكداً نبذ التمييز بالألوان : « أنا أخو كل تقي ، ولو كان عبداً حبشياً ، وبريء من كل شقي ، ولو كان شريفاً قرشياً ، سلمان منا أهل البيت »[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته » أي الخلافة . وقد تولى فعلاً كثير من الموالي

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الحاكم والطبراني .

المسلمين قيادة الجيش الإسلامي ، وإمارة المدن . قال النَّبي ﷺ : « إن الله يرفع بهذا الكتاب[١] أقواماً ، ويضع به آخرين »[٢] .

فأين هذا النهج من محاربة العصبية القبلية والعنصرية في نطاق الإسلام ، مما تفعله الحضارة الحديثة التي تبيح للأمريكان العمل على إفناء الهنود الحمر بطريقة تدرّجية ؟! وأين هذا مما تفعله إسرائيل من هدم بيوت الشعب الفلسطيني وطردهم وتشريدهم ، ومحاولة هدم المسجد الأقصى ، والتهديد بإفناء جميع سكان الأرض المحتلة ، وتهويد القدس ؟!

* * *

(١) أي القرآن الكريم .
(٢) رواه مسلم .

الخاتمة

إن منهج النَّبي ﷺ في نشر دعوته ، واعتماده على الوحي الإلهي ، والحكمة التي التزمها ، وأصول الإسلام ، حقق نجاحاً منقطع النظير في فترة زمنية قليلة ، وجعل مقومات هذه الدعوة سبيلاً لخلود الإسلام ومبادئه وخصائصه .

وليس لأحد أن يغتر بنجاح بعض الدعوات العنصرية في فترة زمنية معينة ، فذلك نجاح موقوت ، والمسألة مسألة زمن ، وستزول بمشيئة الله تلك الدعوات البغيضة والنزعات المنافية للفطرة الإنسانية ، والطبيعة البشرية ، وسيكون النصر لنا بحول الله وقدرته وتوفيقه ، بشرط العودة لإحياء معالم هدي القرآن في النفس والأسرة والمجتمع والنظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري ، وبشرط تحقيق الوحدة أو الاتحاد بين المسلمين ، وما ذلك على الله بعزيز .

* * *